الفصل الأول

الإسرائيليات والنصرانيات..
وكيف تسللت إلى قصص القرآن؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسرائيليات والنصرانيات.. وكيف تسللت إلى قصص القرآن

جعل الله سبحانه وتعالى القصة أسلوباً من بين أساليب كثيرة أخذ بها القرآن الكريم لبلوغ الأغراض التى نزل من أجلها على الرسول ﷺ، ومن هذه الأساليب: وصف الحالة النفسية، وتجسيم المشاهد والمواقف بما يبعث فيها الحياة، وتصوير الحوادث، وغير ذلك من الأمور التى لا تقع فى إطار سياق خاص. من ذلك وصف الجنة وحال أهلها، ووصف النار وحال أهلها، ووصف الحالة النفسية للمؤمنين والكفار بمنأى عن المواقف المترابطة أو الأحداث المتصلة التى تُكَوِّن القصة عادة بمقدمتها وحبكتها ونهايتها، وما تتضمنه من عظة أو عبرة أو توجيه، وما يتخللها من حوار.

وإذا كانت كل هذه الأساليب تهدف إلى غاية واحدة، وهى إبلاغ الدعوة الدينية، فإن القصة باعتبارها أسلوباً من بين الأساليب لا تخرج بدورها عن هذا الهدف المرسوم، مثلها فى ذلك مثل الصـــور التى يرسمها القرآن للقيامة وللنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التى يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التى يفصلها والأمثال التى يضربها.. إلى آخر ما جاء فى القرآن من موضوعات (١).

أهداف القصص القرآنى:

والقصة فى القرآن الكريم تهدف إلى بلوغ غايات دينية أساساً، منها: إثبات الوحى والرسالة، فمن يقرأ القرآن يتساءل: من أين جاء محمد بهذا القصص

(١) سيد قطب، التصوير الفنى فى القرآن، صفحة ١١٧.

الحق، وهو لم يشاهد وقائعه، ولم يقرأها، لأنه لم يكن قارئاً؟ إنه من عند الله (٢).

كذلك يثبت القصص القرآنى وحدانية الله، وتوحيد الأديان فى أساسها، وإثبات البعث، والإنذار، والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والعجلة والتريث، والصبر والجزع، والشكر والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامى الخلقية قد تناولته، وكانت أداة له وسبيلاً إليه (٣).

ويمكن القول إن هذه الأهداف مجتمعة تعد مظهراً من مظاهر التحدى الذى واجه به الله سبحانه وتعالى الكفار والمشركين بما يتضمنه من بيان لحقائق القرآن والإسلام (٤).

وتتميز قصص القرآن بالإيجاز الشديد؛ نظراً لأنها ليست مقصودة لذاتها، أى أنها تروى كحادثة وقعت، ومن ثَمَّ ينبغى بيان دقائقها وتفاصيلها، وأين وقعت وكيف، ومن الذى اشترك فى أحداثها، إلى غير ذلك مما يستلزمه الفن القصصى، وإنما القصة القرآنية تهدف إلى العبرة والتذكير والتعليم والتأويل؛ ولذلك فإنها لا تعنى بذكر الأشخاص، ولا الأماكن ولا الزمان الذى وقعت فيه الأحداث، كما أنها تقتصر على الأحداث الرئيسية بدون الدخول فى التفاصيل، بل وقد تتجاوز عن بعض الأحداث الرئيسية عمداً، تاركة لمن يستمع إليها أو يقرؤها الفرصة لإعمال خياله واستخدام فكره لتصور ما حدث، وغالباً ما تكون هذه الأحداث أو التفاصيل غير هامة لبلوغ الغرض من القصة.

وليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن قصص القرآن هو على سمت القصص العربى الذى عرفه العرب فى جاهليتهم، والذى هو فى طبيعته صور منتزعة من الواقع، بعيدة عن الخيال والتهويل والمبالغة (٥). فالقصص العربى فى الجاهلية يختلف كل الاختلاف عن قصص القرآن، سواء من حيث الأسلوب والأهداف والمرامى، أو من حيث بعده عن الخيال وخلوه من المبالغة والتهويل،

---

(٢) الاستاذ محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى: القرآن، صفحة ١٧٥.

(٣) سيد قطب، المرجع السابق، صفحة ١١٨.

(٤) الأستاذ محمد أبو زهرة، المرجع السابق، صفحة ٢٠٥.

(٥) الاستاذ عبدالكريم الخطيب، القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه، صفحة ٣٩.

فمن يقرؤه يلمس إلى أى مدى أغرق فى الخيال وامتلأ بالمبالغة والتهويل، وهو ما يخلو منه القصص القرآنى.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى بيَّن فى كتابه الكريم سبب ورود القصص به:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (٦)

فإن هذا ليس السبب الوحيد، وإلا كان معنى ذلك أن ينتهى الغرض من هذا القصص لكونه قد استنفد بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. ولكن الواقع أن هذا القصص ــ وإن كان الله سبحانه وتعالى قد قصه على الرسول لتثبيت فؤاده ــ فإنه أيضاً موجه إلى المسلمين ليتخذوا مما تضمنه من أحداث وما انتهى إليه من نتائج عظة وعبرة، ففضلاً عن تثبيت الفؤاد المشار إليه فى الآية، فإن للقصص أسباباً أخرى ورد ذكرها فى غير هذا من الآيات، من ذلك قوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (٧)

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٨)

ويقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية (ولكن رحمة من ربك) أى: ما كنت شاهداً لشىء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

أى لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل.

وهكذا تتعدد الأسباب التى ورد قصص القرآن من أجلها، فقد يكون السبب هو التدليل على صحة نبوة الرسول ﷺ، حيث إن أحداث القصة وقعت فى زمن

(٦) سورة هود، الآية ١٢٠

(٧) سورة طه، الآية ٩٩.

(٨) سورة القصص، الآية ٤٦.

موغل فى القدم ولم يكن له بها علم ولا لقومه. وقد ينضم إلى هذا السبب سبب آخر، كالرد على سؤال المشركين والكفار عن أحداث معينة بقصد اختبار صدق نبوة الرسول، وقد يكون السبب هو التدليل على قدرة الله تعالى أو التدليل على رحمته بعباده أو إنعامه عليهم وكفرهم بنعمه أو غير ذلك.

وليس من شك فى أن للقصص القرآنى أهدافاً أخرى ذات طبيعة اجتماعية؛ لأنه إنما جاء من أجل جماعة المسلمين، وفى ذلك يقول الدكتور راشد البراوى (٩): «فقصص القرآن تنطوى على الكثير من المبادىء التى لو طبقناها فى حياتنا اليوم، لأقامت المجتمع الذى يسوده العدل والأمن والسلام ويرفرف عليه الرخاء» ففى كل قصة من قصص القرآن الكريم نلاحظ هذه الأهداف الاجتماعية، والسياسية والحربية، مثال ذلك ما أصدره قائد الفتية إلى أحدهم الذى بعثوا به إلى المدينة من ضرورة توخى الحذر بعدم إشعار أهل المدينة بوجوده بينهم حتى لا يلقوا القبض عليه ويتعرفوا عن طريقه على مكان الكهف، ومن ثم يقبضون على زملائه ليعيدوهم إلى ملتهم أو ليرجموهم إذا ما هم رفضوا العودة إلى تلك الملة، وغير هذا من إرشادات تزودنا بها القصة، من بينها ضرورة لزوم الجماعة والانصياع لرأى الأكبر والأكثر خبرة ودراية وحنكة، وعدم الاصطدام بقوى الشر إذا كانت تفوقنا قوة وتمتلك أسباب الغلبة ونحن قلة لا حول لنا ولا قوة، فعلينا فى مثل هذه الحالة أن نلوذ بالله ونلجأ إليه ليحمينا ويرعانا وينصرنا على البغاة الظالمين.

وهكذا نجد أن للقصص القرآنى أهدافاً كثيرة، وإن كانت تتفاوت فى الأهمية إلا أنها تتضافر فيما بينها فى تحقيق الهدف العام والشامل للقرآن الكريم الذى نزل على الرسول ﷺ لهداية الناس إلى الصراط القويم، وقد استحوذ هذا القصص القرآنى على اهتمام العرب الذين كان القصص يشيع بينهم فى الجاهلية، يروونه فى مجالسهم ويتناقلونه جيلاً عن جيل، مع إدخال بعض الإضافات عليه، مما يتلاءم مع الظروف الجديدة، وخاصة ما يتعلق منها بأحوالهم الفكرية.

وكانت موضوعات قصصهم هى الحروب، وأيامها، كيوم دَاحس والغبراء، ويوم الفِجَار، ويوم كلاب، ويوم ذى قار، فضلاً عن الموضوعات العاطفية،

---

(٩) القصص القرآنى تفسير اجتماعى، سلسلة القرآن دار الفكر الحديث، المقدمة ص٣.

كأخبار العاشقين، والأشعار المنسوبة إليهم، وأخبار الجن، وأخبار السحرة والكهان، وغير ذلك من الموضوعات التى تعبر عن عقلية العرب فى جاهليتهم، وتمثل أدبهم وحياتهم.

فلما سمعوا قصص القرآن بعد المبعث أو قرءوه وجدوه مختلفاً عن قصصهم، فهو يخلو من الأسماء ولا يحدد الأماكن ولا الأشخاص، ويقتصر على الأحداث الرئيسية بدون الدخول فى التفصيلات التى عهدوها فى قصصهم.

وعلى الرغم من إدراكهم للمغزى الذى جاءت القصص من أجله مجردة بهذا الشكل، فإن نفوسهم تاقت إلى معرفة التفاصيل والإلمام بالمعلومات التى تتعلق بأبطال القصص، والأماكن التى وقعت فيها أحداثها، وزمان وقوعها، وغير ذلك، على الرغم من عدم أهميته، خاصة أن القصص يتعلق بأحداث يستحيل معاينتها أو الرجوع إليها، وإنما هو يركز على موضع العبرة وجوهر الموقف، فماذا يهم الناس من أمر ذى القرنين مثلاً أو أصحاب الكهف، أو فرعون موسى، أو زوجة العزيز، أو العبد الصالح، أو غير هؤلاء وأولئك ممن ذكرهم القرآن؟ وما الذى سيفيده الناس إذا عرفوه؟ هل سيرجعون إليهم لسؤالهم مثلاً، أو أن ذكرهم وبيان أحوالهم بالتفصيل من شأنه أن يضفى على القصة تأكيداً يجعلها أكثر قبولاً؟! وهل المسلم الذى آمن بالله بدون أن يراه وصدّق كلامه الموحى به إلى رسوله بدون أن يرى الوحى، بل وبدون أن يعاصر الرسول أو يسمع عنه، هذا المسلم الذى آمن بالبعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار والملائكة والكتب والرسل بدون أن يرى شيئاً من هذا كله ــ هل هو بحاجة إلى معرفة اسم فرعون موسى، أو فرعون يوسف، أو أسماء أهل الكهف، أو موقع الكهف، أو زمن دخولهم إليه وانبعاثهم فيه، أو غير ذلك لكى يصدق قصصهم أو يؤمن بصحتها؟

ولكنه الفضول والولع بالمعرفة، وأهم من هذا وذاك الإثارة التى لجأ إليها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى للفت أنظار المسلمين عن العبرة التى فى القصة إلى أمور جانبية لا قيمة لها، متخذين من ذلك سبيلاً لدس الإسرائيليات وتسريبها وفرضها فرضاً على عقول المسلمين بما تتضمنه من أمور تتعارض أشد التعارض مع مبادىء العقيدة.

ويقول ابن خلدون فى المقدمة(١٠): «وقد جمع المتقدمون فى ذلك ــ يعنى التفسير النقلى ــ وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والثمين والمنقول والمردود، والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما تغلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شىء مما تتشوف إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنهم كانوا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين من العرب يومئذ أهل بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهود، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاجون إليها، مثل بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك».

فلما شرع الرسول ﷺ يدعو إلى الإسلام وانضم إليه النفر القليل من المؤمنين. كان هؤلاء فى أول الأمر بمنأى عن تأثير أهل الكتاب، حيث لم تكن مكة تضم بين ظهرانيها أحداً منهم له شأن، وبخاصة اليهود الذين كانوا يقيمون فى المدينة وما حولها. فما إن هاجر المسلمون إلى يثرب وبدأ احتكاكهم باليهود حتى بدأ هؤلاء فى بث سمومهم، وشرعوا فى غزو عقول المسلمين والتسلل إلى فكرهم، وكان ذلك ابتداء من السنة الأولى للهجرة(١١).

وقد أدرك الرسول ﷺ خطورة الأمر، فبادر إلى التحذير منه، ونهى المسلمين عن الاستماع إلى اليهود فى المدينة أو الأخذ عنهم: من ذلك نهيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الأخذ عنهم وتحذيره مما فى ذلك من خطر على العقيدة الإسلامية، فعنه ﷺ أنه قال: «يا معشر المسلمين: كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم». وفيما أخرجه الإمام مالك، وابن أبى شيبة والبزار: من حديث جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبى

---

(١٠) صفحة ٢٦٧.

(١١) بنت الشاطىء، الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ص ٨٦.

ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى» ورجاله موثقون إلا أن فى مجالد ــ أحد رواته ــ ضعفاً. وأخرج البزار أيضاً، من طريق عبد الله بن ثابت الأنصارى: أن عمر نسخ صحيفة من التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء». وفى سنده جابر الجعفى وهو ضعيف.

ليس ذلك وحسب، بل إن القرآن نفسه حذر المؤمنين من اليهود:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٢)

فهو ينبههم إلى أن ما فى أيدى أهل الكتاب ليس صحيحاً بل هو محرف فيجب عدم الأخذ به؛ لأن ذلك من شأنه أن ينقل التحريف إلى العقيدة الإسلامية. وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٣)

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤)

وبعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى بدأت المحاولات من جديد من جانب اليهود وبعض النصارى الذين تظاهروا باعتناق الإسلام، وعلى الرغم من أن عمر

(١٢) سورة البقرة، الآية ٧٥.
(١٣) سورة البقرة، الآيتان ٧٨، ٧٩.
(١٤) سورة آل عمران، الآية ٧٨.

ابن الخطاب تصدى لها بحزم عملاً بنصيحة الرسول ﷺ له، فإنَّ هذا النفر لم يكف عن بث سمومه وترويج مزاعمه بقصد تشويه الإسلام وزعزعة عقيدة المسلمين، فقد روى الحافظ أبو يعلى، بسنده عن خالد بن عرفطة قال: «كنت جالساً عند عمر، إذ أتى برجل من عبد القيس، مسكنه السوس، فقال عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بقناة معه، فقال الرجل: مالى يا أمير المؤمنين؟! فقال له عمر: اجلس، فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾(١٥)

فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: مالى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب «دانيال» قال: مُرْنى بأمرك أتبعه، قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه، ولا تُقْرئْه أحداً من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته، أو أقرأته أحداً من الناس لأَنهكنك عقوبة، ثم قال: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم (١٦)، فقال لى رسول الله ﷺ: «ما هذا فى يدك يا عمر؟» قلت: يا رسول الله: كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا برسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس: إنى قد أوتيت جوامع الكلم، وخواتيمه، واختصرنى اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تَهَوَّكُوا، ولا يغرنكم المتهوِّكون (١٧). قال عمر: فقمت، فقلت: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً، ثم نزل رسول الله ﷺ.

وقد وجد هذا الفريق من أعداء الإسلام فى قصص القرآن بالذات مرتعاً خصباً لممارسة نشاطهم الهدام، مستغلين ما لدى العرب من ولع بالتاريخ،

(١٥) سورة يوسف: ١ — ٣.

(١٦) أديم: جلد

(١٧) أى المتحيرون الشاكون.

obeikandi.com

وما اعتراهم من رغبة ملحة إلى المعرفة، وما نشأ لديهم من فضول وحب استطلاع. وطالما سمع العرب بما لدى اليهود من تراث يتكون فى معظمه من المقولات الدينية، فلما أسلم نفر من اليهود أخذوا يتحدثون عما فى تراثهم من هذه المقولات، وإذ يَجُبُّ الإسلام ما قبله، لم يسترب عامة المسلمين فيمن أسلموا من اليهود، وألقوا السمع إليهم وهم يتفننون فى سرد حكايات مثيرة وتفصيلات خلابة، تأويلاً للمتشابه، ولما اكتفى القرآن بذكر مجمل عبرته. ولم يتميز فى هذه التأويلات ما هو من المرويات الدينية، عما هو من أسطوريات خرافية شحنت بها العقلية الإسرائيلية فى تيهها القديم وتشردها الطويل (١٨).

ومن أبرز الصحابة والتابعين الذين دخلت الإسرائيليات إلى كتب التفسير والحديث عن طريقهم: كعب الأحبار، والقرظى، ووهب بن منبه، وأخوه عبد الله بن سلام، وتميم الدارى، فقد وضع هؤلاء مئات الأحاديث فى التفسير وأخبار الأمم السالفة وفضائل البلدان والأقطار، وغير ذلك مما شاع عنهم وتناوله الرواة والمحدثون جيلاً عن جيل، وبسند أكثره إلى الرسول ﷺ. ويقول المستشرق جولد تسيهر عنهم «ومن الحق أن اعتناقهم للإسلام قد سما بهم على مظنة الكذب، ورفعهم إلى مرتبة العلم التى لا تثير ارتياباً ــ وكان كعب الأحبار يلقب بملجأ العلماء» (١٩).

وكعب الأحبار هذا قدم من اليمن فى خلافة عمر بن الخطاب، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، ومات بحمص بعد ماملأ الشام وغيرها من البلاد الإسلامية بالإسرائيليات. أما وهب بن منبه فقد كان فارسى الأصل، نشأ فى اليمن، واستوطن بها، فأخذ عن يهود اليمن كما أخذ الكثير عن النصرانية، ولما دخل فى الإسلام روى الأحاديث التى نلقها عنه أبو هريرة وعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهم، ومما قاله أنه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً، كان يردد ما قرأه فيها على مسامع المسلمين أثناء تجوله فى البلاد الإسلامية، وقد توفى سنة ١١١ هجرية.

كذلك كان تميم الدارى من اليمن، ولكنه كان نصرانيًّا، رحلت قبيلته إلى قرية فى فلسطين وقدم على النبى فى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة، وكان

(١٨) بنت الشاطىء: الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ص ٨٧.

(١٩) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٥٠.

من رهبان المسيحية، ورجع إلى الشام بعد مقتل عثمان والتحق بمعاوية وهو صاحب رواية الجساسة التى رواها مسلم فى صحيحه بأسانيد مختلفة، ويعد تميم أول من روى القصص الدينى (٢٠)، وتبعه وهب بن منبه وكعب الأحبار، حيث توسعوا بدرجة ملحوظة فى استخدام المصادر اليهودية الأصل، وخاصة فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، مما جعل الخليفة الثانى يستدعى كعب الأحبار وينهاه عن ذلك: فقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية (٢١) أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: «إذا لم تترك الحديث عن رسول الله ألحقتك بأرض القردة» وقد ظل تميم الدارى يترهب حتى بعد دخوله فى الإسلام حتى قال عنه أبو نعيم: «إنه راهب أهل عصره، وهى نزعة نصرانية ظلت تلازمه. ومما لا شك فيه أن المسلمين قد شعروا بالحرج، وما زالوا يشعرون به، من اتهام هؤلاء الناس، الذين أصبحوا فى عداد الصحابة والتابعين، ويتقون التورط فى القطع بالحكم عليهم أيهم دخل فى الإسلام مؤمناً به، وأيهم ممن تعوذوا بالدخول فيه نفاقاً يكيدون له» (٢٢).

ومما هو جدير بالملاحظة أن وهب بن منبه وكعب الأحبار أو كعب بن مانع هما أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، وقد أخذ عن كعب الأحبار اثنان هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس ــ وهذا يعلل ما فى تفسيره من إسرائيليات ــ وأبو هريرة. ولم يؤثر عن كعب أنه ألف كما أثر عن وهب بن منبه، ولكن كل تعاليمه ــ على ما وصل إلينا ــ كانت شفوية (٢٣).

وقد استرعى نظر أحمد أمين أمر على جانب كبير من الأهمية، وهو أن: «أكثر من ذكرنا من منابع القصص كتميم الدارى، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار من أهل الكتاب من اليمن، فما السر فى ذلك؟ ولِمَ كان ما يروى عن يهود اليمن فى هذا النوع أكثر مما يروى عن يهود الحجاز؟ لعل السبب أن اليمن كانوا أكثر حضارة كما علمت، وقد استتبع هذا وجود مدارس يهودية أرقى مما كان ليهود الحجاز ــ وهذه المدارس اليمنية ثابتة تاريخيًّا، فكان من نتيجة ذلك انتشار الثقافة اليهودية فى اليمن، بما فيها من شروح للتوراة وأساطير ونحو ذلك، على نمط أوسع مما

(٢٠) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر ص ٥٩ طبعة الشعب.

(٢١) الجزء الثامن ص ١٠٦.

(٢٢) عائشة عبد الرحمن المرجع السابق ص ٨٩.

(٢٣) فجر الإسلام ١٦١.

كان ليهود الحجاز، فلما دخل يهود اليمن الإسلام رووا ما تعلموا، فكان لهم أكبر الأثر(٢٤).

التفرقة بين التفسير والقصص:

لما شاع القصص وانتشر، ومعظمه من التراث اليهودى والقليل منه من التراث المسيحى، وأصبح المسلمون يرددونه فى مجالسهم ومجتمعاتهم ــ ساوَرَ القلقُ قادةَ الرأى المسلمين، وخشوا من أن ينظر إليها العامة على أنها تفسير للقرآن الكريم الذى كانوا يتحرجون من تفسيره، بل إن بعضهم كان يرفض ذلك بشدة ويستنكره، حتى ولو كان الأمر يتعلق بما أمسك القرآن عن ذكره فى خبر القرون الماضية والغيبيات، وهى التى أسرف أهل الكتاب من يهود ونصارى فى الخوض فيها فى كتبهم، إلا أن شيوع قصصهم الدينى فى أوساط المسلمين ــ نظراً لما يتضمنه من أحداث مشوقة ومواقف مثيرة ومعلومات غريبة وأخبار عجيبة، وكلها مما يجذب الأسماع إليه بما يثيره لدى أصحابها من فضول وحب استطلاع ــ جعل قادة الرأى يبادرون إلى وضع تفرقة بين ما يُعد تفسيراً ومالا يعد كذلك،واعتبروا القصص خارجاً عن التفسير، وميزوا فى التفسير بين ما كان منه متعلقاً بالقرآن فرفضوه، وما كان منه متعلقاً بالسنة النبوية فقبلوه وأقروه. وهكذا نظروا إلى الإضافات التى أضافها أهل الكتاب من يهود ونصارى باعتبارها من القصص الدينى لا من التفسير، وساد الاعتقاد لدى صحابة الرسول ﷺ بأن الاستماع إلى تأويلات أهل الكتاب وإلى قصصهم الدينى لاضرر فيه طالما لم تكن بمعنى التفسير. وفسر البعض نهى الرسول لأصحابه عن سؤال أهل الكتاب على أن المقصود به سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص، ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، وأنه لا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة(٢٥).

ولما كان القصص يدخل فى هذا النطاق الأخير، فإن النهى لا يشمله. وهكذا وجدت الإسرائيليات الطريق مفتوحاً أمامها إلى مجالين واسعين أولهما: قصص القرآن، وثانيهما: السنة النبوية، فانطلق مروجوها يرتعون فيها كما يحلو لهم.

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦٢.

(٢٥) فتح البارى، الجزء الثالث عشر ص ٢٨٤.

ولم يجد اليهود والنصارى فى التفرقة التى وضعت بين القرآن والسنة، وبين التفسير والقصص مايعوقهم عن ممارسة نشاطهم، بل انتهزوا الفرصة لنشر أساطيرهم وتأويلاتهم، ويقول المستشرق جولد تسيهر(٢٦): «إنه عن طريق (الحديث) دخل الإسلام، وتسرب إليه كنز كبير من القصص الدينية، حتى إذا نظرنا إلى المواد المعدودة فى الحديث، ونظرنا إلى الأدب الدينى اليهودى، فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الدينى من هذه المصادر اليهودية» ومما لا شك فيه أن التمييز بين التفسير والقصص لم يكن من الدقة والإحكام بحيث يؤدى إلى الحيلولة دون تسرب الإسرائيليات إلى الإسلام، وإن كان هذا الافتقار إلى الدقة لا يرجع إلى خطأ الذين وضعوا معيار التفرقة، وإنما يرجع فى الحقيقة إلى الظروف التى كانت سائدة وقتئذ من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى العوامل التى طرأت فيما بعد.

وفيما يتعلق بالظروف التى وضعت فيها التفرقة، فإنها تتمثل فيما قام من وضع عقب انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى وانقطاع الوحى، واضطلاع الخلفاء بالمسئولية، ثم ماتلا ذلك من اضطراب أحوال المسلمين وقيام حروب الردة، مما دفع الخلفاء ومعهم بقية الصحابة إلى التركيز على المصدر الأول للشريعة الإسلامية، وهو القرآن، لحمايته من كل ما من شأنه النيل منه، سواء من حيث وجوده نفسه، بشكل كامل وصحيح، أو من حيث التدخل فى مضمونه بالتأويل والتفسير، وهو ما رفضوه بشدة.

ولذلك فإنهم بادروا إلى جمع القرآن فى عهد الصِّدّيق، وإلى نَسخه فى عهد عثمان، ولم يفعلوا ذلك بالسنة النبوية، على الرغم من أنها المصدر الثانى للشريعة الإسلامية، وكان دافعهم إلى عدم تدوينها ما نسب إلى الرسول ﷺ من نهى عن ذلك، فعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه»(٢٧) وروى عن أبى هريرة أنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: «ما هذا الذى تكتبون؟» قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: **«كتاب غير كتاب الله!؟ أتدرون؟**

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٥١.

(٢٧) صحيح مسلم بشرح النووى الجزء الثامن عشر ص ١٢٩.

ما ضل الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى».

ومع ذلك فإن هناك أحاديث أخرى أباح فيها الرسول ﷺ الكتابة، فقد قال عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله، أريد حفظه فنهتنى قريش، وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «**اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منه إلا حق**»(٢٨) وروى عن أبى هريرة أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث الرسول ﷺ فلا يحفظه فيسأل أبا هريرة فيحدثه، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ. فقال له عليه السلام الصلاة والسلام: «**استعن على حفظك بيمينك**»(٢٩) وقد قيل تفسيراً لهذا التعارض الظاهرى: إن صحابة رسول الله خشوا إذا كتب البعض أقوال الرسول ﷺ أن ينصرف الناس عن القرآن إلى السنة وينظروا إليها كما ينظرون إلى القرآن، وبمرور الزمن تحل السنة محل القرآن، كما فعل بنو إسرائيل بكتبهم وتركوا التوراة، وكما حلت أقوال المسيح محل الإنجيل الذى أنزله الله عليه.

كذلك فإنه لما كان أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين، ولا جالسوا العلماء، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من صحف تتضمن أحاديث الرسول بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن.

وهكذا بقيت السنة ميداناً مفتوحاً أمام مُرَوِّجِى الإسرائيليات يقتحمونها بإضافاتهم وتأويلاتهم ومروياتهم، ولما كانت السنة مكملة ومفسرة لما جاء فى القرآن الكريم فقد كانت بمثابة الباب الخلفى الذى تسلل منه هؤلاء إلى القرآن ذاته، مما جعل التفرقة بين التفسير والقصص تفقد مع الزمن، ما كان يرجى أن توفره من حماية.

أما العوامل الأخرى التى طرأت، وأدت إلى فقدان التفرقة بين التفسير والقصص لدقتها وإحكامها وبالتالى تحقيقها لما كان يرجى منها فمنها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية، ودخول شعوب أخرى غير العرب فى الإسلام تتكلم لساناً غير

(٢٨) سنن الدّارمى الجزء الأول ص ١٢٥.

(٢٩) توضيح الأفكار الجزء الثانى ص ٣٥٣.

عربى، مما جعل فهمها للقرآن واستيعابها لما فيه من عظات وعبر، وإدراكها لأهدافه ومراميه متسماً بالصعوبة، مما أتاح الفرصة لأعداء الإسلام من يهود ونصارى لنشر تأويلاتهم ودس مروياتهم وأساطيرهم، متخذين من اعتراف الإسلام باليهودية والمسيحية سبيلاً للربط بين ما جاء فى القرآن من خبر القرون الماضية والغيبيات، وما تضمنته كتبهم من أساطير وخرافات، على الرغم مما فيها من أمور تتعارض أشد التعارض مع مبادىء الإسلام. ويقول أحمد أمين (٣٠): «إن المسلمين ربطوا ما سمعوه من اليهود عما جاء فى كتبهم بتفسير القرآن أحياناً، وبتاريخ الأمم الأخرى أحياناً، ونضرب لذلك مثلاً بما جاء فى تاريخ الطبرى (حدثنى المثنى بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى أبو معشر، عن سعيد بن أبى سعيد، عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين، وخلق الأقوات إلخ..» ويقول أحمد أمين: وكثير من هذا النوع روى حول ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء.

وقد ساعد على نجاح اليهود والنصارى فيما سعوا إليه ما كانت تعتنقه هذه الشعوب من ديانات قبل الإسلام، أو ما كانت قد سمعته من قبل من اليهود الذين كانوا يقيمون بين ظهرانيها.

ويضاف إلى هذا العامل، عامل آخر، وهو تسامح المسلمين المستمد من عقيدتهم مع غيرهم من معتنقى الديانات الأخرى، وبخاصة اليهود الذين كانوا وما زالوا يلعبون دور النباتات المتسلقة مع كل حضارة ناشئة، فيحيون عالة عليها يستغلونها لتحقيق مآربهم ويمتصون طاقاتها، وينخرون فى قوائمها كما ينخر السوس فى العظم، فقد انتهزوا فرصة اتساع رقعة الدولة الإسلامية ومضوا فى إثْر جيوشها يحلون حيث تحل لينشروا أساطيرهم وخرافاتهم التى حسبوها على الإسلام، مستغلين حداثة عهد الشعوب به، وقد ساعدهم على بلوغ هدفهم الدور الذى أصبح يقوم به من يسمون بالقُصَّاص، وهم الذين يتخذون من رواية القصص مهنة يتكسبون منها.

---

(٣٠) فجر الإسلام ص ١٥٧.

الدور الذى لعبه القصاص فى نشر الإسرائيليات:

القُصاص جمع، ومفردها القاص أو القصاص، وفى لسان العرب القاص: الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها. والقصة: الخبر، وهو القصص. وقص علىّ خبره يقصه قصاً وقصصاً: أورده. والقصص: الخبر المقصوص، بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه. والقصص، بكسر القاف: جمع القصة التى تكتب.

وفى القاموس المحيط: قص أثره قصًّا وقصيصاً: تتبعه، والخبر: أعلمه، نحن نقص عليك أحسن القصص: نبين لك أحسن البيان، والقاصُّ مَنْ يأتى بالقصة. وما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم لا يزيد على هذا ففيه: قص الكلام أو الأخبار ونحوها يقصها قصًّا وقصصاً: تتبعها فرواها. قص القصص: روى الأخبار.

وقد عَرَّف المستشرق اليهودى «جولد تسيهر» القاص أو القصاص فى كتابه المسمى دراسات إسلامية بأنه: الرجل الذى كان يجمع الناس حوله فى الطرق أو فى المساجد ــ من غير أن تكون له صفة رسمية ــ فيعظهم حينا بذكر الأحاديث والأخبار المأثورة، ويسليهم بالقصص والحكايات حيناً آخر، وإن الصيغة الدينية لحديثهم (أى القُصاص) هى التى كانت تميزهم عن القُصاص غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم فى الطرق ليسلوهم بالنوادر والمضاحك(٣١) ويلاحظ على تعريف «جولد تسيهر» أنه قصد به القصاص فى الدولة الإسلامية، أى بعد مجىء الإسلام. فى حين أنهم كانوا موجودين فى الجاهلية وإن اختلف نوع القصص الذى كانوا يقصونه، فقد شاع القصص بين العرب فى الجاهلية، وكان المحور الذى تدور حوله أحاديثهم هو الحروب، وأيامها، كيوم داحس والغبراء، ويوم الفِجَار، ويوم الكلاب، ويوم ذى قار، والهوى وأخبار العاشقين، والأشعار المنسوبة إليهم، وعن السحر والكهانة، وأخبار الجن وغير ذلك مما يعبر عن عقلية العرب فى جاهليتهم ويمثل أدبهم وحياتهم.

كذلك فإن القصاص كانوا فى الجاهلية يصحبون المقاتلين ويحرضونهم على

---

(٣١) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى الجزء الثانى ص١٤٦.

القتال، ويحمسونهم بقصصهم، وبعضهم استمر يفعل هذا بعد إسلامه، مثل عمرو بن معد يكرب، وقيس بن هبيرة، وشرحبيل بن السمط، فقد ذكر أبو حنيفة الدينورى أن سعد بن أبى وقاص قبل لقاء القادسية جعل هؤلاء الثلاثة يثيرون عزائم الجند بقصائدهم وقصصهم لتحريضهم على القتال (٣٢).

وهذا يدل على أن خلفاء رسول الله ﷺ لم يمنعوا القصاص من القيام بهذا الدور، وهو ما أخذ به من جاء بعدهم من الحكام، فقد ذُكر أن رجلاً يسمى أبا العباس أحمد بن أبى أحمد الطبرى المعروف بالقاص، سُمى بذلك لأنه كان مع جيوش المسلمين فى حروبهم للديلم والروم يحرضهم ويقص لهم (٣٣).

أما فيما يتعلق بالتفرقة التى أوردها «جولد تسيهر» بين أنواع القصاص، حيث قسمهم إلى قصاص لهم الصفة الرسمية، أى يكلفون رواية القصص من جانب الحكام، وقصاص ليست لهم الصفة الرسمية، ثم تقسيمه لهؤلاء إلى قصاص دينيين يقصون القصص الدينى، وآخرين غير دينيين يسلون الناس بالنوادر والمضاحك على حد قوله، فهو تقسيم صحيح.

ويمكن القول إن القصاص كانوا فى أول الأمر يقومون بهذا العمل، تطوعاً، أى بصفة غير رسمية، وبدافع من إيمانهم بالعقيدة الإسلامية، وكان ميدانهم الرئيسى، على ما سبق أن ذكرنا، بين الجند وفى المعارك، سواء فى حياة الرسول ﷺ أو بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ومع ذلك فإن بعضهم كان يروى القصص فى المدينة فيما بين الغزوات، وقد ذكر ابن الجوزى فى كتاب «القصاص والمذكرين» أن النبى ﷺ امتدح الخطباء الصالحين الذين يسمون القصاص. ويقول أيضا: إن عمر بن الخطاب أجاز لتميم الدارى أو لعبيد بن عمر فى رواية أخرى أن يقص على الناس.

وإن كان للمقريزى (٣٤) رأى مخالف فهو يقول: إن القصص والقصاص لم يكن فى أيام الرسول ﷺ ولا فى زمن الخلفاء الراشدين، وإنما حدث فى زمن معاوية وقبل خلافة عثمان.

---

(٣٢) المرجع السابق ص ١٤٧.

(٣٣) المرجع السابق ص ١٤٨.

(٣٤) الخطط الجزء الثانى ص ٢٥٣.

وكان تميم الدارى قد استشار عمر بن الخطاب قبل ذلك ليقص على الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر. فلما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان استأذنه تميم فأذن له أن يذكر الناس يومين فى الجمعة، فكان تميم يفعل ذلك (٣٥). وفى رواية أخرى عن الحسن أنه سئل: متى أحدث القصص؟ قال: فى خلافة عثمان. فسئل: من أول من قص؟ قال: تميم الدارى (٣٦).

أما الخليفة الرابع على بن أبى طالب، فقد جاء فى الإحياء (٣٧) للغزالى أنه أمر بطرد القصاص من المساجد، ومنع الناس من الجلوس إليهم والاستماع إلى قصصهم، واستثنى الحسن البصرى؛ لأنه كان يسلك فى قصصه مسلكاً سليماً. وفعل مثل ذلك عبد الله بن عمر، فاستعان على إخراجهم من المسجد بصاحب الشرطة (٣٨).

ظهور القُصاص الرسميين:

يكاد الإجماع ينعقد على أن أول من استعمل القصاص بصفة رسمية هو معاوية بن أبى سفيان بعد أن آلت إليه الخلافة، وأول من أصدر إليه معاوية أمره بقص القصص هو «تميم الدارى» الذى كان يقوم بهذا العمل فى آخر خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان على سبيل التطوع، فلما عهد إليه معاوية بأمر القصص على الناس أخذ يروى قصصه فى المساجد إذا فرغ المصلون من صلاة الصبح، وفى المجتمعات فى غير أوقات الصلاة.

وما لبث معاوية أن عهد إلى القضاة فى الأمصار بمهمة القصاص، فقد روى الكندى فى كتابه «القضاة» أن كثيراً من القضاة كانوا يقومون بمهمة القصاص إلى جانب مهنة القضاء بأمر من الحاكمين، وأن أول من قص بمصر «سليمان بن عمر التجيبى» سنة ٣٨ هـ. وولاه معاوية أمر القضاء إلى جانب القصص، ثم لم

---

(٣٥) محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين صفحة ٢١٠ هامش رقم ٤.
(٣٦) أحمد أمين، فجر الإسلام ص ١٥٨.
(٣٧) الجزء الثانى ص ٥٨ ــ ٥٩.
(٣٨) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٨٨.

يلبث أن عزله من القضاء وخصصه للقصص لاغير(٣٩) إلا أن المقريزى يرى أن تولى القاضى للقصص لم يحدث إلا فى مصر، فلم يتم الجمع بين القضاء والقصص إلا فيها، ويفسر هذا الوضع الفريد بقوله: إنه من المحتمل أن يكون نظاماً من أنظمة الكنيسة المصرية.

ومما لاشك فيه أن استحداث معاوية لوظيفة القُصاص ينم عن فطنة وبعد نظر، فقد أدرك ما لعملهم هذا من أهمية، وما لدورهم من أثر واضح يشبه إلى حد كبير الأثر الذى تحدثه وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيون وصحف فى الدول المعاصرة، حيث تروج مبادىء الحكام وتنشر أفكارهم ومذاهبهم سياسية كانت أم اجتماعية، وهو ما فعله معاوية بن أبى سفيان، إذ كان يواجه عداء شديداً من خصومه الذين انتشروا فى أنحاء الدولة الإسلامية يطعنون فى شرعية خلافته.

وقد وُجِدَ فى هذه الفترة ــ فضلاً عن القصاص الرسميين وغير الرسميين الذين يقصون القصص الدينى ــ قصاص من نوع آخر يروون أخبار الأمم الماضية فى القصور وعلى أسماع الخلفاء، ومن هؤلاء عبيد بن شرية الجرهمى الذى قيل: إنه روى أخبار ملوك العرب من لخم وغسان، لمعاوية بن أبى سفيان الذى كان قد استحضره من صنعاء فى اليمن إلى دمشق ليروى أخبار الأمم الماضية، واستمر عبيد يقوم بهذا العمل إلى أيام عبدالملك بن مروان، وله كتاب (الملوك وأخبار الماضين) (٤٠).

كذلك كان عمر بن عبدالعزيز يحضر مجلس القصاص، ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور(٤١). والظاهر أن وظيفة القاص أصبحت فى العهدين الأموى والعباسى من الوظائف السامية التى يسعى إلى شغلها عِلْيَةُ القوم، فقد جاء فى لسان العرب لابن منظور: وقيل: أراد الخطبة لأن الأمراء كانوا يلونها فى الأول ويعظون الناسَ فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة.

ويبدو أن المبدأ الذى وضعه معاوية بن أبى سفيان، والذى يقضى بتشجيع

---

(٣٩) أحمد أمين المرجع السابق ص ١٦٠.

(٤٠) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى الجزء الأول صفحة ٢٥٠.

(٤١) ابن الجوزى، نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس صفحة ١٢٠.

القصاص باعتبارهم وسيلة من وسائل إعلامه، طبقه خلفاؤه من بعده، فشجعوهم بدورهم، حتى تضاعفت أعدادهم، وانتشروا فى كل مصر من أمصار الدولة الإسلامية، فلما سقطت دولة أمية وآل الحُكم إلى بنى العباس، لم يشأ هؤلاء ــ وبالذات الخلفاء الأوّل ــ أن يواجهوا ظاهرة القصاص التى أصبحت تمثل خطراً على الإسلام، بل أرخوا لهم العنان وتركوهم يصولون ويجولون فى أنحاء الدولة، ولم يعد القاضى يجمع بين منصب القضاء وقص القصص فحسب، بل جرى الجمع بين قراءة القرآن والقصص، فكان من يقرأ القرآن بالمسجد يقص القصص أيضاً.

وقد كثر القصاص بالعراق حتى حكى ابن عوف (المتوفى عام ١٥١هـ) أنه فى مساجد البصرة كان لعلماء الفقه حلقة واحدة، على حين كان للقصاص حلقات لا تحصى، حتى كانت المساجد مملوءة بهم. وفى بغداد ابتكر أحد القصاص، وهو موسى بن سيار الأسوارى، طريقة جديدة فى القصص، إذ كان يجلس وعن يمينه العرب، وعن يساره الفرس، فيقص لهؤلاء بالفارسية، ولأولئك بالعربية. وكان له قريب يدعى عمرو بن قائد الأسوارى كان قاصًّا مثله، وظل يقص ستًّا وثلاثين سنة، وكلاهما عاش فى القرن الثالث الهجرى. ثم انتشر القصاص فى آسيا الوسطى وفى غيرها من الأمصار.

أما فى الحجاز فكانوا نادرين، ويحكى عن مالك بن أنس أنه منعهم من دخول مسجد الرسول بالمدينة، وكانوا أيضاً قليلين فى المغرب، حيث كان يغلب على الناس العناية بالحديث والأمانة فى روايته، حتى يقول المقدسى: إن أهل المغرب لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك.

ويقول: «جولد تسيهر»: إن القصاص لم يلقوا معارضة من أحد، وخاصة العلماء، ولم يضايقهم أحد فى أدائهم لهذه المهمة، أى رواية القصص. وإذا كان ذلك صحيحاً فى عهد الدولة الأموية وبداية عهد الدولة العباسية، إلا أن سبب صحته ليس هو الذى قاله «جولد تسيهر» وهو: «أنهم كانوا عنصراً مكملاً فى الحياة الدينية الإسلامية» فهذا القول منه محض افتراء؛ لأن القُصاص لم يكونوا فى يوم ما عنصراً مكملاً فى الحياة الدينية الإسلامية، بل الصحيح أنهم كانوا عنصر هدم لهذه الحياة بما كانوا يروجونه من إسرائيليات وأساطير وخرافات

وأكاذيب أساءت أشد الإساءة إلى الإسلام، وما زالت تسىء إليه.

أما السبب الصحيح لعدم معارضة العلماء للقُصاص، فهو الصفة الرسمية أو شبه الرسمية لهؤلاء فى عهد الأمويين، وقيامهم بالدعوة لهم، وترويج أفكارهم، ونشر آرائهم فى خصومهم السياسيين، واستمرار هذا الوضع فى عهد الدولة العباسية. ومع ذلك فإننا نجد الحسن بن على رضى الله عنهما، فى العهد الأموى، ينكر على قاص صادفه يقص القصص قوله عن نفسه: إنه قاص، ودعاه إلى ترك رواية القصص. وكذلك سالم بن عبدالله بن عمر الذى لم يكن يحب أن يستمع إلى قاص الجماعة.

أما فى عهد الدولة العباسية فإنه فضلاً عما فعله الإمام مالك فى المدينة، فإن العلماء ــ وبالذات أئمة المذاهب ــ فعلوا مثله فى بغداد عاصمة الخلافة، فقد هاجمهم أبو حنيفة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والغزالى، وغيرهم ممن لمسوا عن كثب خطورة الدور الذى يلعبه القُصاص، وفى هذا يروى أن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين أديا الصلاة بمسجد الرصافة، فقام بين أيدى المصلين قاص، فقال: حدثنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبدالرازق عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً، منقاره من ذهب وريشه من مرجان.. ومضى يعدد أشياء غريبة وكائنات عجيبة يخلقها الله من كلمات لا إله إلا الله، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين وهذا ينظر إليه، ثم سأله: أنت حدثته بهذا؟! قال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة، فلما انتهى القاص ــ أشار له يحيى، فجاء متوهماً أنه سيمنحه مالاً، فسأله يحيى: من حدثك بهذا؟! قال: أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين، فقال أنا يحيى، وهذا أحمد، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله، فإن كان ولابد فعلى غيرنا، فقال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل أحمقان، ما تحققته إلا الساعة، فقال له يحيى: وكيف؟ قال: كأنه ليس فى الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما؟ لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين!! فما كان منهما إلا أن رضيا من النقاش بالسلامة. ليس ذلك فحسب، بل إن الشعراء أنفسهم لم يترددوا فى تحذير الناس من القُصاص، بعد أن تمادوا فى غيهم، وهددوا

بنشاطهم العقيدة الصحيحة، وتسلطوا على الناس يتلاعبون بعقولهم، فها هو ذا أبو دلف الخزرجي شاعر المُلح والطرف، والذى ألف قصيدة مشهورة تسمى القصيدة الساسانية، بيّن فيها أصناف المكدين والمخرقين والمحتالين من أسوأ طراز فسمى فيها القُصَّاص فقال:

ومن قص لإسرائيل أو شبراً على شبر

وكانوا يطلقون على الحكايات القصار الشبريات للتمييزبينها وبين القصص. ويقول ابن منظور فى «لسان العرب» وفى الحديث لا يقص إلا أميرٌ أو مأمور أو مختال، أى لا ينبغى ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا، أو مأمور بذلك فيكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسباً. أو يكون القاص مختالاً يفعل ذلك تكبراً على الناس، أو مرائياً يرائى الناس بقوله وعمله لا يكون وعظه وكلامه حقيقة.

ويقول: وفى الحديث: القاص ينتظر المقت لما يعرض فى قصصه من الزيادة والنقصان ومنه الحديث: «إن بنى إسرائيل لما قصوا هلكوا»، وفى رواية: «لما هلكوا قصوا»، أى اتكلوا على القول وتركوا العمل فكان ذلك سبب هلاكهم، أو العكس لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص.

كذلك فإنه لما كثر عدد القصاص وزاد طمعهم، اشتد الصراع فيما بينهم، واحتدمت المنافسة، وتفشى الحقد والبغضاء بينهم، فصاروا يكيدون لبعضهم بعضاً حتى أصبح من الأمثال الجارية أن القاص لا يحب القاص.

ويصور ابن قتيبة تأثيرهم على قلوب العامة قائلاً: «كانوا يميلون وجوه العوام إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير، والغريب، والأكاذيب من الأحاديث. ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب، ويستفز العيون، فإذا ذكر الجنة قال: فيها الحوراء من مسك أو زعفران، وعجيزتها ميل فى ميل.. الخ» وأصبح العامة يصدقونهم ولا يصدقون الفقهاء والعلماء، بل وكانوا يوجهون الإهانات إليهم إذا حاولوا تصحيح معلومات العامة فقد ذكر ابن الجوزى فى كتابه «القصاص والمذكرين» أن الشعبى نزل تدمر فى حكم عبد الملك بن مروان، فسمع شيخاً عظيم اللحية يقول:

إن الله خلق فى كل صور نفختان، نفخة الصعق، ونفخة القيامة، قال الشعبى: فرددت عليه وقلت له: إن الله لم يخلق إلا صورًا واحدًا وإنما هى نفختان، فقال لى يا فاجر: إنما حدثنى فلان عن فلان وترد على، ثم رفع نعله وضربنى، وتتابع علىَّ الضرب ممن معه، فما أقلعوا عنى حتى قلت لهم إن الله خلق ثلاثين صورًا.

وشبيه بهذا ما حدث للإمام الطبرى، فقد سمع أحد القصاصين يفسر قوله تعالى: (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) أن الله سبحانه يجعل للرسول ﷺ مكاناً على العرش بجانبه، فأنكر عليه ذلك، وكتب على باب داره ما ينزه به الله تعالى عن ذلك، فلما فهم القصاص ما يقصد إليه أوعز إلى العامة فأخذوا يقذفون داره بالحجارة حتى سدوا عليه طريقه.

ويقول ابن الجوزى وغيره ممن تعرضوا لأحوال القُصاص: إن الإسرائيليات وما يتصل بها من مواردهم الرئيسية التى اعتمدوها فى قصصهم، وكانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر من لا يجهل شيئاً ولا يعجزه الجواب عن شىء، ولا يتورعون عن الإجابة عن كل واقعة ولو كانت وهمية: فقد ادعى بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذى عبده بنو إسرائيل، واسم الذئب الذى أكل يوسف، فقال له بعض الحضور: إن الذئب لم يأكل يوسف، فأجابه بأنه يعرف اسم الذئب الذى لم يأكله (٤٢) وهذا ما دفع ببعض الفقهاء مثل الليث بن سعد إلى التفرقة بين نوعين من القصص، أحدهما هو ما سُمى بقصص العامة، وهو الذى يجمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، فذلك مكروه ممن فعله وممن استمعه، والآخر قصص الخاصة، وهو الذى جعله معاوية، وفيه يجلس القصاص بعد أن يسلم من صلاة الصبح فيذكر الله عز وجل ويحمده ويمجده ويصلى على النبى ﷺ، ويدعو للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده، ويدعو على أهل حربه وعلى المشركين كافة. وهذا النوع من القصص كان مقبولاً عند الليث بن سعد.

ويقول أحمد أمين (٤٣): إن هذا القصص هو الذى أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث

---

(٤٢) هاشم معروف الحسينى، الموضوعات فى الآثار والأخبار ص ١٦٣.

(٤٣) فجر الإسلام ص ١٦٠.

مزيفة أتعبت الناقد وأضاعت معالم الحق.

ولما استفحل خطر القصاص أمر الخليفة العباسى فى عام ٢٧٩ هـ بالنداء فى مدينة السلام (بغداد) ألا يقعد فى الطريق ولا فى المسجد قاصٌّ ولا مُنَجِّمٌ ولا عَرَّاف. وجدد هذا الأمر فى عام ٩٨٤هـ.

ثم بطل نظام الجمع بين المنصبين، القضاء والقصص، وارتفع شأن منصب القضاء، وانحط منصب القاص، بل وبطل أيضاً الجمع بين قراءة القرآن والقصص، ففى عام ١٣٠١ هـ أراد أبو بكر الملطى الذى تولى القصص فى هذه السنة أن يقرأ القرآن ويقص فى كل يوم، فمنع القاضى من ذلك، فرجع القاص إلى القراءة فى ثلاثة أيام وترك القصص.

ومع ذلك فقد بقى القصاص غير الرسميين يمارسون نشاطهم. وفى القرن الرابع الهجرى نزلوا إلى غمار العامة، وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر فى المساجد والطرق، وينالون منهم مالاً كثيراً. وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء، فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم.

وفى أواخر القرن الرابع كان القصاص أكثر مثيرى الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة، وكان من نتيجة ذلك أن فقدوا كل ثقة من جانب أهل التقى والصلاح، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم، هى طائفة المذكرين، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر.

وعلى الرغم من موقف الخلفاء العباسيين منهم، أى من القصاص، وعداء العلماء لهم، فإنهم لم يكفوا عن القيام بنشاطهم، بل ونوعوا فى أساليبهم، وفى الموضوعات التى يقصونها للناس، ففى القرن السادس الهجرى يقول ابن الجوزى (٤٤): «إنهم تلمحوا ما يزعج النفوس ويطرب القلوب، فَنَوَّعوا فيه الكلام، فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية فى العشق.. ومنهم من يتحرك الحركات التى يوقع بها على قراءة الألحان التى قد أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهى إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة، والقارىء يطرب، والقاص ينشد الغزل مع تصفيق بيديه وإيقاع برجليه، فتشبه السُكر، ويوجب ذلك تحريك الطباع وتهييج

(٤٤) نقد العلم والعلماء صفحة ١٢٠.

النفوس وصياح الرجال والنساء، وتمزيق الثياب لما فى النفوس من دفائن الهوى.. ومنهم من يتكلم بالطاقات والشطح الخارج عن الشرع ويستشهد بأشعار العشق، وغرضه أن يُكثر فى مجلسه الصياح ولو على كلام فاسد، وكم منهم من يزوّق عبارة لا معنى تحتها، وأكثر كلامهم فى موسى والجبل، وزليخا ويوسف، ولا يكادون يذكرون الفرائض، ولا ينهون عن ذنب، فمتى يرجع صاحب الزِّنى، ومستعمل الربا، وتعرف المرأة حق زوجها، وتحفظ صلاتها؟».

ويقول: «ومن القصاص من يخلط فى مجلسه الرجال والنساء، وترى النساء يكثرن الصياح وَجْدًا على زعمهن، فلا ينكر ذلك عليهن، جمعاً للقلوب عليه، ولقد ظهر فى زماننا هذا من القصاص مالا يدخل فى التلبيس؛ لأنه أمر صريح من كونهم جعلوا القصص معاشاً يَسْتمنحُونَ به الأمراء والظَّلَمة، والأخذ من أصحاب المكوس، والتكسب به فى البلدان، وفيهم من يحضر المقابر فيذكر البلى وفراق الأحبة، فيُبكى النسوة، ولا يحث على الصبر».

وهكذا نلاحظ، على العكس مما ذهب إليه «جولد تسيهر» أن العلماء لم يكفوا عن معارضة القصاص والتحذير منهم ومن نشاطهم الضار، وأساليبهم الماكرة من اجتذاب الناس إليهم، والاستيلاء على أموالهم، وإفساد عقولهم. وإذا كانوا فيما شنوه من حملات عليهم لم يحققوا نجاحاً ملحوظاً، فإن ذلك لا يرجع إلى تقصير من جانبهم، أو قصور فى وسائلهم، بقدر ما يرجع إلى أحوال المسلمين فى تلك العصور، حيث كانت مجتمعاتهم فى حالة من التفاعل الشديد بين عناصر ثقافية قديمة وأخرى جديدة، أو هى قديمة ولكنها تعد جديدة بالنسبة لمن وفد من العرب إلى الأقاليم المفتوحة، وقد وجد القُصاص ووجدت القصة كذلك سبيلها إلى البناء الثقافى للأمة الإسلامية الذى كان فى طور النمو.

ولعلنا لاحظنا فيما ذكره ابن الجوزى التطور الهام الذى أصاب رواية القصص فى القرن السادس الهجرى، حيث أصبحت تصاحبها إيقاعات بالأقدام وتصفيق بالأيدى، مع الغناء، أى أن القاص لم يعد، كما كان فى السابق، يقص القصص كما لو كان يقرأ من كتاب، أو حتى كما لو كان يتكلم كلاماً عادياً، وإنما أصبح يردده غناء مصحوباً بالإيقاع بالأقدام التى تدق الأرض وبالأيدى التى تصفق، وفى مرحلة تالية أضاف القصاص إلى الإيقاع، أنغام آلة الربابة التى

تصاحب غناءهم للقصص وهو ما نراه حتى اليوم فى الريف المصرى، حيث ينتقل الراوى ــ أى القاص ــ بين القرى والنجوع يعزف على ربابته ويقص القصص، فيتجمع حوله الرجال والنساء والأطفال يستمعون إلى قصص عنترة والزناتى خليفة والزير سالم، كما يروى السيرة النبوية بطريقة تذكر بما كان يفعله سلفه فى القرون الهجرية الأولى من اللجوء إلى الإسرائيليات وذكر الأساطير والخرافات.

ومع ذلك فإنه يمكن القول إن تأثيرهم فى العامة آخذ فى الضعف إلى أن ينعدم، أو بالأحرى إلى أن ينقرضوا، خاصة بعد أن أقبل هؤلاء على التعليم واقتنوا أجهزة الاستقبال الإذاعى والمرئى، فلم يعودوا بحاجة إلى الاستماع للقصاص. ولكن لا يزال للإسرائيليات التى طالما روج لها هؤلاء بابٌ واسع تنفذ منه إلى العقول، هذا الباب هو كتب التفسير والكتب المسماة بقصص الأنبياء، وقصص القرآن التى تستمد معظم مادتها من الإسرائيليات، بل إن مادة هذه الكتب انتقلت إلى ما يقدمه التليفزيون والإذاعة من تمثيليات ومسلسلات دينية.

وهكذا يتبين لنا أن العوامل التى أدت إلى نجاح اليهود فى دس إسرائيلياتهم فى الإسلام هى:

أولاً: استبعاد المسلمين أن تتسلل الإسرائيليات إلى القرآن الكريم؛ لأنه موثق ومحفوظ نصًّا ورسماً وقراءة، ومن ثم فليس ما يمنع من سماع تأويلات أهل الكتاب وقصصهم.

ثانياً: أن الإسلام وهو يقر حرية العقل والفكر، لم يفرض حظراً على تراث الملل والعقائد السابقة عليه، ولم يلجأ إلى مصادرته.

ثالثاً: استغلال اليهود لما جاء فى القرآن من تصديق لما سبقه من الرسالات والكتب.

رابعاً: استغلال اليهود لسماحة الإسلام ودخولهم فيه لضربه من الداخل عن طريق بث أساطيرهم وخرافاتهم.

خامساً: أن الرسول ﷺ وإن كان قد نهى أصحابه عن العمل بما فى كتب اليهود والنصارى إلا أنه لم ينههم عن سماع أقوالهم دون تصديقها أو تكذيبها.

مدى نجاح التدوين فى تخليص السنة من الإسرائيليات:

يمكن القول إن تدوين السُّنة لم يبدأ بصورة منظمة وشاملة إلا على عهد عمر ابن عبد العزيز، أى فى مستهل القرن الثانى الهجرى، فَدُوِّنَتِ السنة فى صحف وكراريس ودفاتر، وكثرت الصحف فى أيدى طلاب الحديث، وعلى الرغم من خضوع عملية جمع السنة النبوية وتدوينها لأدق الشروط والضوابط وتناولها بالفحص الدقيق، سواء من حيث توثيق الإسناد أو صحة الرواية وعدالة الرواة وضبطهم، فإنه أفلت مع ذلك إلى كتب التفسير والحديث مرويات صح إسنادها إلى صحابة وتابعين، من أمثال كعب الأحبار والقرظى ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وغيرهم من النصارى واليهود الذين أسلموا. وهناك من يرجع ذلك إلى أن العلماء عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن، فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية ما نسب إلى النبى ﷺ لا يتفق والظروف التى قيلت فيه، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفى يخالف المألوف فى تعبير النبى، أو أن الحديث أشبه فى شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا (٤٥).

ولذلك فإننا نجد أن معظم كتب التفسير القديمة تمتلىء بالإسرائيليات، وخاصة بالنسبة للقصص، إلى الحد الذى أصبحت فيه هذه الإسرائيليات جزءاً من التفسير، فنجد الطبرى مثلاً يلجأ إلى المصادر اليهودية الأصل مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه، فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، وكتابه يعد أكثر كتب التفسير من حيث استعانته بالنصوص الإسرائيلية وبالأساطير النصرانية التى يرويها الطبرى راجعاً إلى «وهب بن منبه» ولا تقل الكتب الأخرى عنه إلا بقدر قليل من حيث رجوعها إلى وهب بن منبه وكعب الأحبار اللَّذَيْن يعدان من أعظم المصادر لقصص الأنبياء وأساطير الماضين، والتى على أساسها وضع جماعة من المفسرين تفاسيرهم لبعض الآيات والسور التى لا تزال كتب التفسير مشحونة بها على تفاوت فيما بينها، يرجع إلى القدر من الفضول والتطلع العلمى الذى يتوفر لدى كل مفسر، يضاف إليه ما يتميز به من بُعد نظر واتخاذ للحيطة وتسلح بالحذر إزاء ما تقع عليه عيناه من الإسرائيليات. ولا شك أن ابن قتيبة والنووى

---

(٤٥) أحمد أمين المرجع السابق ص٢١٨.

والزمخشرى يأتون فى مقدمة هؤلاء، إذ أنهم لا يروون عن كعب الأحبار أبداً، فى حين يروى ابن جرير قليلاً عنه، وينقل الثعلبى والكسائى عنه كثيراً فى قصص الأنبياء (٤٦).

كذلك فإن ابن كثير يُعد من بين المفسرين الذين يلتزمون بالحيطة ويأخذون بأسباب الحذر، حيث أنه حاول ما وسعه الجهد أن يتخلص من تأثير الأساطير والخرافات الإسرائيلية وينقى كتابه منها، أو على الأقل يلفت انتباه القارىء إلى مصدرها ويذكر تحفظه بشأنها على خلاف مع غيره ممن سبقوه والذين كانوا يباهون باستعانتهم بكتب اليهود والنصارى، مثل مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هجرية الذى ذكر فى تمييز خصيصته أنه: استمد علمه بالقرآن من اليهود والنصارى، وجعله موافقاً لما فى كتبهم.

وهكذا نرى أنه بمضى الزمن أصبحت الإسرائيليات والنصرانيات مرتبطة أشد الارتباط بالقرآن والسنة بعد أن تضمنتها كتب التفسير، وهذا الوضع الغريب والشاذ فى آن واحد أصبح يمثل مشكلة ليست بالهينة، أضيفت إلى غيرها من المشكلات التى واجهها الفقهاء المسلمون فى المرحلة الوسطى من عمر الدولة الإسلامية، ويمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى واحد ممن تصدوا لها، وهو ابن تيمية، وذلك فى كتابه «مقدمة فى أصول التفسير» (٤٧) حيث ذهب إلى القول بأن: الاختلاف فى التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، إذ العلم: إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق. والمنقول: إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم. وهذا هو النوع الأول، فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه، وهذا القسم الثانى من المنقول، وهو مالا طريق إلى الجزم بالصدق منه، فالبحث عنه مما لا فائدة فيه، والكلام فيه من فضول الكلام، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته: فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً.

فمثال مالا يفيد، ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم فى أحوال «أصحاب الكهف» وفى البعض الذى ضرب به موسى المقتول من البقرة، وفى مقدار سفينة

---

(٤٦) المرجع السابق ص ١٦١.

(٤٧) ص ١٨ — ٢٠.

نوح، وما كان خشبها، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، وما لم يكن كذلك، بل كان يؤخذ من أهل الكتاب كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن أخذ عن أهل الكتاب، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوا بباطل فتصدقوه».

وكذلك ما نقل عن التابعين، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل فى ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً: فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى من نقل التابعى، ومع جزم الصاحب فيما يقوله كيف يقال: إنه أخذه من أهل الكتاب وقد نُهوا عن تصديقهم!!

والمقصود بيان أن الاختلاف الذى لا يعلم صحيحه، ولا يفيد حكاية الأقوال فيه: هو كالمعرفة، لما يروى من الحديث الذى لا دليل على صحته، وأمثال ذلك، وأما القسم الأول الذى يمكن معرفة الصحيح منه: فهذا موجود فيما يحتاج إليه. ولله الحمد.

ويقول ابن تيمية فى موضع آخر: «وغالب ذلك: يعنى المسكوت عنه ــ مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى، ولهذا: تختلف أقوال علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ويأتى من المفسرين خلاف ذلك، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى، من أى الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب المقتول من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك، مما أبهمه الله فى القرآن الكريم، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم، ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ

إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٨﴾

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده على ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: (قل ربى أعلم بعِدَّتِهم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب، فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وتذكر فائد الخلاف، وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل عن الأهم، تماماً من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً، فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، ويرجع حاملها إلى قول، أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وأكثر مما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور.

ومن يقرأ كتب التفسير يلاحظ أن بعض المفسرين سبقوا إلى الأخذ بهذا المنهج الذى وضعه ابن تيمية إلا أنهم كانوا قلة، منهم ابن كثير، فهو كان ينبه إلى الخلاف بعد أن يستوعب الأقوال، ثم يستحسن ما يعتقد أنه صحيح منها، ويبدى تشككه فيما لا يثق فيه. فى حين أن غيره لم يفعلوا شيئاً من هذا، بل كانوا يذكرون روايات أهل الكتاب وتأويلاتهم وقصصهم دون تعقيب، وهذا من شأنه أن يوحى للقارىء بصحتها فضلاً عن ارتباطها بالسياق الذى وردت فيه، ولذلك فإن كتب التفسير بعامة وقصص القرآن بخاصة، يجب أن يعاد النظر فيها لتخليصها مما تحتويه من إسرائيليات وأساطير وخرافات، بل إن إعادة النظر هذه يجب أن تشمل كذلك كتب التراث الأخرى للكشف عما فيها من روايات غير

(٤٨) سورة الكهف، الآية ٢٢.

صحيحة وأحداث مفتراة، وأقوال لا تتفق مع الإسلام فى كثير أو قليل، أو على الأقل مراجعتها قبل إعادة طبعها وإضافة بعض الحواشى إليها يتم التنبيه فيها إلى ما فى المتن من مثل هذه الأمور.

وليس أدل على وجوب ذلك مما توصل إليه البحث الذى قام به أحد الباحثين وهو السيد مرتضى العسكرى، وتبين منه أن بعض المؤرخين الأعلام كابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ فى كتابه الكبير «تاريخ مدينة دمشق» والذهبى فى كتابه «تاريخ الإسلام» نقلاً عن كتابين، الأول: «فى الفتوح والردة» والثانى: «الجمل وسيرة عائشة وعلى» ألفهما فى القرن الثانى للهجرة «عمر بن سيف التميمى» وعنهما نقل المؤرخون ممن جاءوا بعدهما دون أن يتصوروا أنهما مظنة اتهام، حتى وقف عندهما الباحث فوصل به البحث الدقيق المقارن، والنقد الفاحص الثاقب إلى أن «الأسطورة السبئية» قد اختلقت صحابة وهميين، واخترعت أسانيد موضوعة، وزينت أخباراً جازت على المؤرخين فيما نقلوا من رواية «سيف ابن عمر التميمى» (٤٩).

كذلك نبه ابن خلدون إلى ما فى النقل عن الغير دون تمحيص وتثبت من أخطار عظيمة ومضار جسيمة. «كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو ثميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط، ولذلك فإنه بعد أن يعرف فن التاريخ بقوله: «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا» يوجه المؤرخين والمفسرين إلى ما يجب عليهم عندما يكتبون فيه فيقول: «فهو، أى التاريخ، يحتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران

---

(٤٩) دكتورة عائشة عبد الرحمن، المرجع السابق، صفحة ٢٧.

والأحوال فى الاجتماع الإنسانى، ولاقيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق» (٥٠).

(٥٠) المقدمة، صفحة ١٢.

obeikandl.com